

التواصل بين الإقناع والتطويع

الدكتور محمد الداهي

تمهيد:

تتمحور هذه الدراسة حول أحد مكونات **التداولية اللغوية** وهو **الكفاية التواصلية** التي تتحكم فيها إكراهات عديدة سعيًا إلى كسب مودة المتلقي وثقته (ومن ضمنها نذكر أساسًا: طبيعة التفاعل بين طرفي التواصل، وبنية الخطاب المتداول وحركيته واتساق عناصره وترابطها). وذلك لا يتطلب من المتكلم **المعرفة الخطائية** (*savoir cognitif*) فحسب وإنما حسن **الأداء الخطائي** (*savoir faire discursif*)¹. وفي هذا الصدد هناك من يستعمل كفايته اللغوية لإحداث تواصل فعال مع غيره على نحو يعزز التفاهم والتعاون والاحترام بين الطرفين (وهو المسعى الذي تراهن عليه التداولية). في حين هناك من يستعمل حذقه اللغوي لتمويه الآخرين وتغليطهم وإخضاعهم بغية تحقيق مآربه وتطلعاته الشخصية. فحيثما تتضارب المصالح الشخصية ينتعش التطويع الذي يسهم، إن لم يدبر بطرق عقلانية وتشاركية، في تعزيز صفو العلاقات الإنسانية وتدميرها، وتوسيع هامش الكراهية والقسوة والفظاظة بين الناس، والإفشاء بالمشروعات الجماعية إلى الإخفاق والتفسخ.

1- الفعل التواصلية:

حدد هيرماس أربعة نماذج للفعل وهي: **الفعل الغائي** و**الفعل الدرامي** و**الفعل المعياري** و**الفعل التواصلية**². ما يهمنا مؤقتًا من هذه الأفعال هو الفعل الأخير، الذي سنعرف به ونميزه عن الأفعال الثلاثة الأخرى. «يهم الفعل التواصلية تفاعل شخصين فأكثر على الأقل للتحدث والفعل، وهو ما يفضي إلى إقامة علاقة

¹ - استلهمنا هذه المفاهيم من كتاب:

J.Moesler: *Argumentation et conversation Eléments pour une analyse pragmatique du discours*, Hatier, Paris, 1985, p11.

² - Jürgen Habermas : *théorie de l'agir communicationnel*, Fayard, tome I, traduit de l'allemand par Jean-Marc Ferrey, 1987, pp100-110.

بينهما (سواء بالوسائل اللغوية أو غير اللغوية). يبحث الفاعلون عن اتفاق حول وضعية الفعل وذلك لتنسيق خطط العمل والأعمال نفسها على نحو متوافق عليه»⁽³⁾.

تلعب اللغة دورا تداوليا لإقامة التفاهم بين البشر (ما يصطلح عليه التفاهم اللغوي). فبواسطتها يؤولون وضعية ما ويتفاوضون عليها بهدف الوصول، باستثمار المعتقدات المشتركة، إلى توافق يفضي إلى تنسيق المصالح المشتركة والانخراط في مشروعات جماعية تعود بالنفع العميم على الجميع.

وما يميز، عموما، الفعل التواصلي عن النماذج الأخرى هو أنه يهدف إلى تحقيق اتفاق بين البشر على أساس عقلائي (شروط التداوليات الكلية)⁽⁴⁾، والوصول إلى غايات نبيلة لتعزيز الوئام والتضامن والاندماج بين البشر في الفضاءات العمومية⁽⁵⁾، وتفادي العنف بمختلف تجلياته ومظاهره. في حين أن المتكلم في النماذج الثلاثة المتبقية ينطلق من أحادية البعد التي يتعامل بمقتضاها مع الآخر بوصفه جسرا لتحقيق الأهداف الشخصية دون مراعاة مشاعره وأحاسيسه. ولوصول المتكلم إلى هذا الهدف يضطر إلى استعمال مختلف الوسائل للتأثير في الآخر وتغيير معتقداته (على نحو المال والنفوذ والمظهر والعنف..).

2- أنواع التطويع:

نترك جانبا الفعل التواصلي النبيل ونخوض في التطويع الذي نعين بعضا من تجلياته في النماذج الثلاثة للفعل البشري. ويعرف فليب برتون التطويع على النحو

³ -Ibid p102

⁴ - يحددها ما نفرنك فرانك في ما يلي: الصدق (صدق القضايا المطروحة) والجدية (جدية المتكلم) والصحة (صحة المعايير المقترحة). انظر محمد الأشهب: الفلسفة والسياسة عند هابرماس، سلسلة نقد السياسة (3)، منشورات دفاتر سياسية، ط1، 2006، ص29.

⁵ -الفضاء العمومي دائرة التوسط بين المجتمع المدني والدولة. هو الفضاء المفتوح الذي يجتمع فيه الأفراد لصوغ رأي عام والتحول بفضلته وعبره إلى مواطنين توحدتهم آراء وقيم وعادات مشتركة. ويعتبر الرأي العام هو وسيلة المواطنين للضغط على الدولة في منأى عن التأثيرات الفلسفية والعرقية والسياسية من أجل اتخاذ قرار معين وتطبيقه بالعمل.

الآتي: «فعل عنيف ومكره يسلب حرية الآخر لإخضاعه. وهو بمثابة كذب منظم يتوخى منه إيقاع الآخر في الخطأ»⁶).

ويقوم التطويق على العناصر الآتية:

- تمويه الخبر (*désinformation*): يضلل الرأي العام بتوظيف أخبار مغلوطة أو تضخيمها لأهداف محددة سلفا.

- الدعاية: ترسخ مبادئ معينة في ذهن العامة ببحثهم على تردد محاسنها ونشرها على نطاق واسع بهدف حصول إجماع حولها. وبالمقابل، تدحض مزاعم الخصوم وتبين مساوئها وسلبياتها. ويطلق عليها "الديبلوماسية العمومية" التي تستهدف الجماهير العريضة للتأثير عليها وتغيير معتقداتها.

- الضرب على الوتر الحساس: تُستغل نقاط ضعف المتلقي أو قابليته للتصديق أو سذاجته للتأثير عليه وتدجينه والتلاعب به.

- الشعور بالذنب (*Culpabilité*): يحس الفرد أنه المسؤول وحده عن إخفاقاته وإحباطاته (نقص ذكائه، وافتقاره للمؤهلات).

- الألعاب (*Game*): يستخدم المطوع الألعاب وسلوكات تطويقية لإيقاع الآخر في فخه، وكسب مودته وثقته وعطفه (على نحو البكاء والشكوى والظهور بمظهر الضحية والإغراء).

- إطار الافتراء (*Le cadrage menteur*): يشغل الكذب بوصفه سلاحا حرييا وعنفا نفسيا، وذلك لترسيخ فكرة معينة ودحض غيرها.

- إطار المغالاة: يتلاعب المطوع بالألفاظ لإيهام المتلقي وتغليظه. وفي هذا الصدد يستعمل الألفاظ المفخخة (على نحو إلصاق قنمة الإرهابي بالعربي)، والأكاذيب المضللة (استخدام الرصاص الفولاذي المغطى بالمطاط عوض الرصاص المطاطي لتفريق المتظاهرين)، والعبارات الملتبسة (يعطي مسحوق التيد لونا أكثر بياضا لقضاء فصل الشتاء دون زكام عليكم باستعمال أقراص من نوع كذا)،

⁶ -Philippe Breton : *La parole manipulée*, éd La découverte & Syros, Paris, 2000,p23.

وينشر إشاعات لإحباط عزيمة الخصم وإرباك خططه (ما يصطلح عليه بالكذب النبيلة).

الإطار المكروه (*Le cadrage contraignant*): يراهن على جعل المتلقي يقبل رأيا أو يتبنى سلوكا. ولتحقيق هذا الهدف يلجأ المطوع إلى لفت انتباهه إلى قضية معينة تتخذ تعلقة للوصول إلى قضية مستضمرة.

3-أنواع التطويع:

- التطويع الانفعالي (*Manipulation mathématique*):

يضطر الفرد إلى تحمل أدوار اجتماعية وإخراجها بمواصفاتها حتى يؤثر في متلقيه. وفي هذا الصدد يستعمل المناورات العاطفية المناسبة للتأثير في الناس والاستحواذ على عواطفهم وتوجيه ميولهم.

- التطويع المعرفي (*M.cognitive*): يستعمل المتكلم تقنية "التأطير"

وذلك باستثمار معان يعرفها المتلقي وإعادة توظيفها لأغراض أخرى. وهكذا يضطر، حسب السياق، إلى تحويل الكذب إلى الحقيقة والعكس صحيح.

ويعتمد هذا النوع من التطويع على الردود اللاإرادية (*automatismes*) والتكرار، (إثارة استجابات وسلوكات محددة سلفا) بواسطة حوافر متكررة. ونشير في هذا الصدد إلى إشهار "مالبرو" في الخمسينات الذي كان يهدف إلى توسيع قاعدة المقتنين من الرجال. ولهذا ركز على ما يتوفر عليه "رعاة البقر" من سمات الرجولة والخشونة والذكورة.

كما يرتكز هذا النوع من التطويع أيضا على الخلط (*amalgame*) وذلك على نحو ما يقوم به اليمين في فرنسا. فهو يحدد المشكلة (البطالة والانحراف وتغير القيم)، ثم يصوغ رسالة تربط بين هذه المشاكل وبين وجود الأجانب (وخاصة العرب والأفارقة) في فرنسا (ما يُصطلح عليه بفرنسي الأوراق *Français de papier*)، ثم يستعمل صحافته بهدف إبراز للرأي العام ما أحدثته الهجرة من مشاكل مزمنة في عقر دياره الفرنسيين.

- التطويع الذهني (*M.mentale*): يؤثر هذا التطويع في ذهن المتلقي

ويجعله يتلقى ما يثبت إليه دون رفض أو إصدار حكم. وهو نوع من "برمجة" ذهن

المتلقي بسلوكات معينة بعد تدريبه على القيام بها في ظروف ومقامات مختلفة. ويعتمد هذا النوع من التطويع على العاطفة (الترهيب والترغيب والوعد والوعيد) والتكرار والضغط والمكافأة أو العقاب.

- التطويع المهني (*M.professionnelle*): يُراهن من خلاله إما على التعريف بالمنتج أو على الرفع من مبيعات بضاعة ما أو على التصويت على مرشح ما.

- التطويع العلائقي (*M.relationnelle*): يتظاهر المطوع بالظرافة واللطف واللباقة، ويستثمر من أوتي من ذكاء وحيوية وفاعلية ومرونة لنيل مراده. ومن بين الأمور التي يعتمد عليها نذكر على سبيل المثال ما يلي: عدم الوضوح، والتشكيك في قدرات الآخر، و الظهور بمظهر الضحية، وتغيير الأفكار والأحاسيس حسب الظروف، واستعمال خطاب منطقي ومنسجم، وعدم تحمل النقد. ويمكن لهذه التصرفات أن تؤثر سلبا في نفسية من يتعامل معهم، بل قد تسبب لهم اضطرابات نفسية فيضطرون إلى عرض أنفسهم على الأطباء النفسانيين⁷.

4-التطويع التلفظي:

تعتمد مختلف أصناف التطويع، التي سبق ذكرها، على الكلام للتأثير في الآخر وتغيير معتقداته. لقد حل الكلام محل العنف لممارسة الضغط والرقابة على المرسل إليه، وبناء صورة مغلوطة للواقع عن عمد وإصرار لإيقاع الآخر في الخطأ. وبما أن التطويع، على هذه الشاكلة، فهو يعتبر عملا عنيفا ومكرها يسعى إلى سلب الحرية من الناس وجعلهم أدوات طيعة لخدمة أغراض معينة. قد يعي بعضهم بخطورة الآلة التطويعية على أوضاعهم واختياراتهم وأذواقهم فيقومون بالتطويع المضاد سعيا إلى إحباط مناوراتها ومقاومة تأثيراتها السلبية عليهم. ونظرا إلى أهمية

⁷-انظر في هذا الصدد:

التطويع التلفظي في حث الآخرين على «تنفيذ برنامج معين»⁽⁸⁾، فإننا سنركز عليه لبيان مقوماته وتحليلاته في متن متنوع (المقامة والرواية والتصريحات السياسية).

4-1- التطويع في المقامة الصناعية⁽⁹⁾:

إن المطوع في المقامة الصناعية هو شخص مجهول الهوية محاط بجماعة من الناس يصغون جيدا إلى زواجر وعظه في أجواء يطبعها النواح والحزن. ومن خلال سحنته وحاله يتضح أنه لا يمارس الوعظ لوجه الله وإنما يستجدي به لتحقيق أغراضه ومآربه. وإن كان لم يصرح بهذه الحقيقة فهي مستضمرة وتمثل «تواطؤا بين المشاركين وفعل التواصل»⁽¹⁰⁾. وما أن فرغ الشخص من وعظه حتى أجزل كل فرد من أفراد الجماعة له العطاء تقديرا لحسن أدائه وبراعته في الرواية وسعة اطلاعه. ومن بين ما ساعده على النجاح في خطته وإدراك مراده هو ما يلي:

أ- استطاع -بفضل مؤهلاته اللغوية وكفايته الموسوعية- أن يكسب مودة الجماعة وثقتها، ويورطها بطريقة غير مباشرة في عقد **ميثاق تلفظي** استيثاقى وقبول **مبادئ اللعب** دون سابق اطلاع على قواعده وإجراءاته.

ب- إنه أديب بليغ "يطبع الأسجاع بجواهر لفظه"، ويتلاعب بالكلمات كما يشاء، ويرتجل العظات دون عي أو حبسة أو تلكؤ، ويجمع بين الصناعتين (النثر والشعر)⁽¹¹⁾.

⁸ - Greimas (A.J) & Courtés (J), *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, op.cit p221

⁹ - أبو محمد القاسم علي بن عثمان الحريري البصري، شرح مقامات الحريري، المكتبة الشعبية، بيروت [د.ت].

¹⁰ - Ducrot (O), *Le dit et le dire*, Minuit, 1984, p20.

¹¹ - "فقد طلع قمر الشعر...فقد تبلى بدر النثر"، أبو محمد القاسم علي بن عثمان الحريري البصري، شرح مقامات الحريري، م.س، ص43. وفي السياق نفسه يقول بديع الزمان الهمداني "البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره. ولم يُزِر كلامه بشعره. فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا. قلنا: لا" مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني، تقديم وشرح محمد عبده، بيروت، ط4، 1957، ص75.

ج- ركز كلامه (أو فعله الإقناعي) على جهة الحمل على الاعتقاد بدعوى أنه يسعى مسبقا إلى تغليط المستمعين وتضليلهم، وجعلهم يعتقدون صحة وسداد ما يتلفظ به. وما مبادرة كل فرد "بإدخال يده في جيبه" إلا دلالة واضحة على اقتناعه بفحوى الكلام ومراميه.

وبالمقابل، يضطلع المتلقي بفعل تأويلي لتفكيك رسالة المتلفظ وإدراك أبعادها ومغازيها. إذا فطن المتلقي بمناورة التطويع، فإنه -حسب مؤهلاته وطاقاته الذهنية واللغوية- سيتحاشاها، أو يبطلها أو يمارس تطويعا مضادا معززا بالحجج الدامغة المناهضة. في المقامة الصنعانية وقع المتلقي ضحية الكلام، لأنه انساق مع قناع الشخص (الصورة المغلوطة) ولم يفلح في إمطة اللثام عن وجهه (الصورة الحقيقية) إلا بعد فوات الأوان. وهكذا «تتبع المقامة لحظتين، تتضمن الأولى تأويلا مغلوطا يفشل في الكشف عن حيلة الشخص، والثانية تتضمن التأويل الصحيح غير المفصل عن الخيبة أو الاندهاش»¹². لو نجح أبو زيد السروجي في الرجوع إلى منزله دون أن يتمكن أي شخص من الاهتداء إليه لظل لغزا محيرا ومحتالا بارعا. لكن الحارث اقتفى أثره حتى اكتشف حقيقته (باطنه غير ظاهره: يعظ الناس بالموعة الحسنة وهو يشرب الخمر) وتعرف إلى هويته (سراج الغرباء وتاج الأدباء). ويمكن، في هذا الصدد، أن نستأنس بمحاور المربع السيميائي لفهم مختلف الصور التي يتلون فيها أبو زيد السروجي لتحقيق مآربه وإدراك مبتغاه:

أ- محور الحقيقة: يدعو الناس إلى اجتناب المنكر في حين يقتطفه.
ب- محور السر: يخفي بأنه يشرب الخمر ولا يمثّل للنصائح التي يعظ بها الناس.

ج- محور الكذب: يتظاهر بالوعظ في حين يقتطف المنكر.
د- محور الزيف: يوهم الناس بأنه يمارس ما يقوله في حين تخرجه أفعاله عن الصراط المستقيم (لا واعظ).

¹² -عبد الفتاح كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال،

هـ محور التناقض: يحرص أبو زيد على الظهور بمظهر الواعظ الذي يدعو الناس إلى الاقتداء به، في حين يخفي حقيقة كونه مارقا عن الدين.

بما أن أبا زيد يحرص على أداء دوره التحديثي على الوجه المطلوب، فهو ينتقي المفردات المناسبة التي تستمد حيويتها وأصالتها من القرآن الكريم على وجه الخصوص، ويحترم مراسم الوعظ ومقتضياته ومحتوياته. وما إيقاع مستمعيه في المصيدة إلا دليل قاطع على حسن أدائه وإتقان دوره. وبما أنه كان يخطب في أساليب الاكتساب، فقد كان يتلون في حاله مضطربا بأدوار فاعلية مختلفة. في البداية يعاف الناس محضره، ويحتفرونه لثأته لباسه، لكن لما يحدثهم يمتنع أسماعهم ويجذب أنظارهم ويكسب تقديرهم، ويصبح -في نظرهم- من «لا يُفري فريته، ولا يُبارى عبقرته»⁽¹³⁾. و هو يتلفظ بالكلام النمطي الملائم للحيثيتين الآتيتين:

أ- يحظى بمنزلة مرموقة ورأسمال رمزي بفضل جودة كلامه وحسن أدائه. يعي بأن آله الفتاكة هي مؤهلاته اللغوية التي يفتق بها الأسماع ويرتق الصدوع والشقوق، وتسعفه-في مختلف الظروف والملابسات- في إخفاء صورته الحقيقية وإدراك مراده.

ب- يعتبر **الحريري** الكلام حربا¹⁴، وهو المعنى نفسه الذي تضمنته عبارة **هامون** في سياقات أخرى (**الحرب التلفظية**). فالتكلم هو شبيه بالمحارب من حيث قراءة خطط الخصم⁽¹⁵⁾ ومباغتته، والاعتماد على الوسائل الناجعة لقمعه وهزمه. وهذا ما جعل **الحارث بن همام** يعتبر نفسه من «نظارة الحرب لا من أبناء الطعن والضرب»⁽¹⁶⁾. في حين أن أبا زيد يلقي بدلوه في الدلاء، ويدخل الحرب متسلحا بالحجج الكافية والجهات المناسبة، ومراعي طقوس الكلام ومراسمه، وساعيا إلى

¹³ -أبو محمد القاسم علي بن عثمان الحريري البصري، شرح مقامات الحريري، م.سا ص217.

¹⁴ - "قالوا أنت ممن يلى في الهيجاء" المصدر نفسه ص160.

¹⁵ - وفي هذا السياق نورد ما يلي : "وأخذوا يتداعون فضل الخطاب ويعتدون عوده من الأحطاب وهو لا يفيض بكلمة ولا يبين عن سمة إلى أن سير قرائحهم وخبر شمائلهم وراحهم فحين استخرج دفائنهم واستنثل كنائهم قال يا قوم لو علمتم أن وراء الفدام صفو المدام...ثم فجر من ينابيع الأدب والنكت النخب ما جلب به بدائع العجب، واستوجب أن يكتب بذوب الذهب" المصدر نفسه 385-386.

¹⁶ - المصدر نفسه ص161.

تأدية المعنى بالسبك الجيد، وعبارات مسجوعة وفصيحة، وحسن التوشية، وحارصا على الاضطلاع بالدور المنوط به على أحسن وجه. وما يتوخى من ذلك هو أن ينجح في خططه، ويظهر الناس باستعداداته ومؤهلاته، ويدرك ما يصبو إليه.

ويستتبع الكلام النمطي الجهات التحديثية الآتية:

- الرغبة في القول: ما قصده أبو زيد من إمتاع غيره بفتيق لسانه وفصاحته والتلون في حاله هو الكدية والاستجداء.

- معرفة القول (حسن الأداء): يوظف أبو زيد مهارته اللغوية في مواضعها المناسبة، وعلى قدر المتلقين. ومن خلالها يتضح مدى تمكنه من الأساليب البديعية، وإلمامه بكل ما يتعلق باللغة والنحو والفقه والأدب والطرف والملح، وقدرته الفائقة على إدراج الكلمات المهجورة والمهملة في سياقات جديدة.

- القدرة على القول: لا يتطلب الكلام من أبي زيد سلامة النطق وحسن التركيب والإحاطة بالمعنى فقط، وإنما أيضا إدراك مواقع القول وأوقاته، واحتمال المخاطبين به والقدرة على تطويعهم وتغليظهم، واستتصمار المقاصد، وسرعة البدهة والمباغنة، وقوة الإفحام.

الحمل على الاعتقاد: يوظف أبو زيد مناوراته التلفظية لإقناع المتلقي المفترض، وتغيير معتقداته، وسلب قدرته على المقاومة، والتأثير عليه لمشاركته اعتقاداته. وبما أنه يجمع بين أساليب الإقناع وأساليب الإمتاع فإن خطابيه لا يكتسي صبغة الإكراه وإنما تتلقاه الآذان بشغف وكلف متزايدين.

4-2- التطويع في رواية ذات لصنع الله إبراهيم¹⁷:

إن رواية ذات مُشّعة على بدايات متعددة. تتعلق البداية الطبيعية بميلاد ذات. وهذه البداية-على حد تعبير الناظم الخارجي-لن يرحب بها النقاد بسبب خروجها عن اللياقة الأخلاقية، واستئثار النظرة العصرية لفن القصة بالنظرة الحسية الذكورية. وتخص بداية أخرى اجتثت من "ذات" ذلك التوء الصغير الذي سبب إزعاجا شديدا للمصريين في قديم الزمان. ويؤثر الناظم الخارجي البداية المحملة بقدر عال من الدراما، وهي التي تهم لحظة الصدمة الكبرى أو ليلة الدخلة. لكن البداية

¹⁷-صنع الله إبراهيم: ذات، دار المستقبل العربي، ط1، 1992.

الحقيقية التي تمثل المرحلة الأولى للبرنامج الحكائي (التطويع)، تم تأخيرها إلى حد الصفحة الرابع والخمسين، إذ تشخصت في شكل توجيه تلقاه المصريون من جهاز البث المركزي (صورة إخبارية لربت بيت تهدم مطبخها لتبنيه وتوثته من جديد). وتحكم في التطويع علاقة تراتبية ما بين جهاز الدولة (ذ1) وبين الشعب المصري (ذ2). فقد وظف الطرف المهيمن التلفاز ليفرض على المهيمن عليه رؤية معينة للمجتمع، ويجفزه على مساندة سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي والانخراط في مسيرة الهدم والبناء. ويندرج التوجيه ضمن الأفعال المشتقة من التحدث *délocutifs*، وهي التي تدل على إنجاز الفعل بالتلفظ به. ويعنى بالتوجيه الإرسال والإدارة إلى جهة ما بالكلام أو بالإشارة، أو هما معا. كما يتضمن «الإيحاء الخاص بالقول»¹⁸، أي التلفظ بالتوجيه والصدع به. لقد اختار الجهاز الحاكم، من بين إستراتيجيات متعددة، تمرير خطابه السياسي بواسطة الصورة الإخبارية. وتركيز الناظم الخارجي على التوجيه، لم يغفل ما للكلام من دور أساس في تقديم وصف تقريرى للصورة، وتثبيت السلسلة الطافية للمدلولات على نحو يمكن من مواجهة رعب الأدلة الملتبسة¹⁹. ويتضمن التوجيه أيضا فعلا لغويا من نوع خاص، وهو المضمّن الذي يحدده **أوسوالد ديكر**. بمعايير النفي. فالمطروح *le posé* هو الرسالة التي تلقاها المصريون من جهاز البث المركزي، وتؤثر على نهج مصر في عهد السادات سياسة جديدة قوامها الانفتاح والخصخصة. وأما المضمّن *le présumé* فيستتبع عدم تلقي المصريين أي توجيه في العقود السالفة لما كانت مصر في عهد جمال عبد الناصر تنهج سياسة الاقتصاد الموجه والتأميم. إن هذه الرسالة الإخبارية تمثل إرسادا مرآتيا لأنها تعكس، في شكل مصغر، ما يعيشه المجتمع المصري من تحولات سياسية واقتصادية

¹⁸ - Bourdieu (P) , « Le langage autorisé : les conditions sociales et l'efficacité du discours rituel » in *Ce que parler veut dire , l'économie des échanges linguistiques* , Fayard , 1982 , p p 103/119.

¹⁹ - Benveniste(E) , « Les verbes délocutifs » ,in *Problèmes de la linguistique générale* ,op.cit ,p 279.

واجتماعية. وما يبين أن ذلك التوجيه التطويعي كان له أثر ووقع في نفسية المصريين، هو انصياعهم له انصياعا تاما. وذلك لأنه يستمد مفعوله من الشروط التي تمنحه الشرعية وتفرضه كسيادة تستدعي الاعتراف به. «فليست سلطة الكلام إلا السلطة الموكولة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة. والذي لا تكون كلماته (أي فحوى خطابه وطريقة تكلمه في الوقت ذاته) على أكثر تقدير، إلا شهادة، من بين شهادات أخرى، على ضمان التفويض الذي وكل للمتكلم»⁽²⁰⁾. وهكذا، أوكلت الدولة إلى التلفاز مهمة النطق بإيديولوجيتها ذات النزوع الليبرالي، والتعبير عنها بطرائق وأساليب مختلفة حتى تستحوذ على أفئدة الجماهير العريضة، وتحضهم على إحداث قطيعة مع المرحلة السالفة (الناصرية). «فهذا النوع من "ال تلقين المذهبي" *indoctrination* القائم بواسطة الترفيه هو الظاهرة التقليدية لما يسمى بـ "الدعاية السوسيولوجية" المصطلح الذي ابتكره المنظر الفرنسي جاك إلول *J. Illul* والذي يعني تلك التظاهرة-الفعاليات التي يسعى مجتمع ما بواسطتها لتحقيق تكامل أكبر عدد من الأفراد، وتوحيد سلوك أعضائه وفقا لنموذج معين، ونقل طراز حياته إلى الخارج، ومن ثم إلى الهيمنة على المجتمعات الأخرى... وبالتالي يصبح هذا الطراز مادة الدعاية السوسيولوجية ليس بسبب قيمه الثابتة، بل لأنه يجمع في بنيته المبادئ الأساسية لرؤية معينة للمجتمع. أما صفة الاجتماعية فإنها تعني أن طراز الحياة هذا، موضوع الدعاية يعبر بصورة مكثفة عن مفهوم معين للنظام الاجتماعي القائم في أطر إيديولوجية معينة، والذي يريد فرض النماذج السلوكية التي تميزه عن غيره»⁽²¹⁾. فمن خلال هذه القولة، يتضح أن التوجيه الإيديولوجي ذو وجهين: أحدهما خارجي يهتم نقل نموذج غربي لتفكيك وزعزعة النموذج السائد، وثانيها داخلي يتعلق بصهر الفرد في المجتمع، والسعي إلى التقدم وتحقيق التكامل»⁽²²⁾.

²⁰ - Barthes (R) , « Rhétorique de l'image » in communication 4,1964,p43

²¹ - بيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعيد العالي، دار توبقال، ط1، 1986، ص 64.

²² - أديب حضور، "سوسيولوجية الترفيه في التلفزيون"، عالم الفكر، م28، العدد 2، أكتوبر/ديسمبر

1999، ص 262.

ويعتبر التوجيه مقولة (بتعبير سيرل) يراهن من خلالها المتكلم على حفز المتلقي على فعل شيء معين. ويمكن أن يكون التوجيه متواضعا جدا كما هو الحال في الرسالة الإشهارية، إذ يقصد به دعوة الشعب المصري إلى الفعل أو الإيحاء به بدلا من الحث عليه. ولهذا فهو لا يتخذ صبغة الإكراه، بل يوظف أساليب الترفيه والإمتاع لاستدراج المتلقي إلى مشاركته القول بطروحه الإيديولوجية. وكلما ازدوجت أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، إلا وكانت إذ ذاك، أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إرشادها للمخاطب، كأنه يراها رأي العين⁽²³⁾. ويرتفع فعل التوجيه بالانخراط الفعلي للمواطنين في مسيرة الهدم والبناء. ويجد كل مواطن نفسه مجبرا على الامتثال والانصياع له حتى لا يتأخر عن ركب المجتمع. وهذا ما يحتم عليه اكتساب قيم جهية لضمان الانتقال من برنامج حكائي إلى آخر، وتأهيل نفسه من الناحية المالية لينخرط في مسيرة الهدم والبناء (الإنجاز)، ويكون له اعتبار ومترلة داخل المجتمع الذي يعيش فيه (الجزء).

جسدت الدولة التوجيه على أرض الواقع بإحداث تغييرات جوهرية في النسيج الاقتصادي وإعداد المجال العمراني والرقابة الإدارية واستقطاب الاستثمارات والعملية الصعبة. ولم تخل سياسة الانفتاح من آفات تكبح جماح التطور، وتثبط العزائم والمطامح. وهذا ما تحيل عليه كليا نتف الأخبار المؤطرة، وجزئيا بعض التمهصلات الحكائية في المحكي المؤطر (وخاصة تلك التي تتعلق بالمنجزات الهائلة التي عرفها حي "مصر الجديدة" لأنه أول ما يطالع السائح، ويسكن فيه رئيس الجمهورية). أما على المستوى الاجتماعي، فقد تمكنت فواعل العمارة المؤهلة-من الناحية المالية- اللحاق بمسيرة الهدم والبناء، والمحافظة على جدولها الزمني بنجاح. وذلك على نحو موظف الزراعة الذي غير ورق الحائط بلون أكثر حداثة كلما حل موعد رش القطن، واستبدله بالأخشاب، وأثبت جهاز الآتروكوم على باب شقته. ثم المدرس العائد من الكويت الذي استبدل الموكيت، وأضاف جهازا كهربائيا وجهاز تكييف جديدين. ثم الحاج فهمي الجزار الذي انضم إلى سكان العمارة في

مرحلة متأخرة وبالأسلوب العصري أي الامتلاك بدلا من الاستئجار. ثم ضابط الشرطة بعد عودته من مهمة أمنية في سلطنة عمان. ثم ضابط الجيش بعد عودته من مهمة تدريبية في الولايات المتحدة، ومن بين ما قام به استبدال سيارته (الفيات 131) القديمة بواحدة مازاد على الصفر. وتأخرت ذات عن اللحاق بالمسيرة بسبب أعذار زوجها (على نحو المراهنة على النجاح في امتحان الإجازة الذي لم يتقدم له أبداً، والحصول على عقد عمل بدول الخليج العربي)، ومعاناتها من الضائقة المالية على إثر ارتفاع الأسعار، وتشبثها باشتراكية جمال عبد الناصر المعادية لبدعة التملك. وهكذا عاشت ذات ردحا من الزمن متأرجحة بين رياح التوجيه الهوج (البرنامج الحكائي الأساس) وبين الوفاء لمبادئها الثورية (البرنامج الحكائي المضاد). وإن ظلت تحن إلى العهد الناصري، فهي قد بدأت شيئا فشيئا تتحرر من شرنقته لتباهى أمام زملائها في العمل بقدرتها على الانخراط في المسيرة. وفي هذا المضمار «توقف جمال عبد الناصر عن المحييء حاملا معول الهدم، لكن أنوار السادات واصل زيارته الليلية وفي يمينه قطع السيراميك المعهودة. ذلك أن جعبة ذات المالية نفدت قبل أن يصل السيراميك إلى السقف بمسافة شيرين، واضطرت إلى استكمال المساحة الباقية بدهان الزيت المؤلف» ص 69.

أدركت ذات أن اللحاق بالمسيرة يتطلب تحقيق البرنامج الحكائي للاستعمال (جمع المال). وبما أن راتبها وراتب زوجها متواضعان جدا، فقد بدأت تعتمد على نفسها؛ وذلك بتوزيع قمصان النوم المهربة من بور سعيد، والاتجار في المواد التموينية، وسحب أكبر كمية نقود من عبد المجيد رغم معارضاته المتكررة، وجمع العلاوات والمكافآت، وتكوين جمعية ادخار بالأرشف من عشرة أشخاص يتناوبون على أخذ ألف جنيه عند نهاية كل شهر. وبفضل ذلك استطاعت أن تواجه المهام المطروحة، فاقترعت على استبدال مرحاض الحمام بواحد حديث، ثم أولت اهتمامها للمطبخ، فغطت جدرانها والأرضية بالسيراميك المصقول الفاخر وردي اللون. إن إصرار ذات على اللحاق بالمسيرة انتهى بالإخفاق نظرا إلى الوتيرة السريعة التي سار عليها المجتمع المصري للتأقلم مع النهج الرأسمالي. فلم تجد بأسا من

مجاراة الحاج الطيب لمساعدتها على تطهير روحها من العفاريت، والتحرر من الضغوط النفسية المتفاقمة.

وعليه، لا يكفي الانصياع للتوجيه فقط بدعوى أنه صادر من جهات وهيئات عليا في التراتبية الاجتماعية، وإنما ينبغي تحقيقه أيضا على مستوى الواقع. وهذا يتطلب من الفواعل أن تكون متسمة بالكفاية الجهية (الرغبة، والمعرفة، والواجب، والإمكان، والفعل)، وقادرة على الانخراط في مسيرة الهدم والبناء (بالتخطيط المعقلن للحاجات، وادخار الأموال، والمثالة الاجتماعية والمهنية)، ومقتنعة بالتوجه الليبرالي الذي نهجه أنوار السادات، ثم من بعده حسني مبارك. وإذا أعوزتها الوسائل الضرورية لتنفيذ التوجيه، فإن الهوة ستتعمق أكثر بين الفعل اللغوي والفعل غير اللغوي، وبين الأماني والواقع المعيش.

الخاتمة:

مما تقدم نخلص إلى ما يلي:

1- من خلال الحالتين نلاحظ أن المتكلم، أكان حاضرا أم مضمرا، فرديا أم جماعيا، يعتمد الكلام بوصفه أداة أساسية ليس لاقتسام معرفة مشتركة وتحويلها إلى عمل يعود بالنفع عليه وعلى غيره، وإنما لممارسة العنف أو الإكراه الذهني عليهم. ويتمثل هذا العنف/الإكراه في استخدام الحيل للسيطرة على الآخر، وشل قدراته على التفكير والرد وإبداء موقفه الشخصي.

2- يظهر المتكلم (المطوَّع) حقائق معينة لإمالة المتلقي وجذب اهتمامه، في حين يخفي مقاصده ونواياه. أو بعبارة أخرى يصدع بكل ما يحسن صورته لدى المتلقي ويسعفه على كسب ثقته أو مودته، بينما هو، في الحقيقة، يضمّر له الخبث والمكر لخدعه وتطويعه والتلاعب به.

3- ينبغي للمطوَّع، علاوة على حسن قراءته لطباع الناس وأمزجتهم، أن يتحلى بقدرات لغوية فائقة تسعفه على جلب اهتمام المتلقي وإيهامه بصدق نواياه وصفاء سريرته، وعلى حرمان المخاطب من التحدث (القدرة على الرد أو إبداء الرأي)، وعلى حفزه على قبول وسوغ ما يتلقاه

وإن كان، في قرارة نفسه، يخالفه ولا يتفق معه. فالمتكلم، في هذا الإطار، ينطلق من تصور سلطوي (أي غير ديمقراطي) يجبر المتلقي على الاستجابة طوعا لمقاصده وتصديقها. فضلا عن تمتع المطوع بالكفاية اللغوية والتواصلية فهو يحسن قراءة طباع المتلقي ومزاجه وردوده المحتملة ورسائله المسترجعة (أكانت إيجابية (على نحو الابتسامة وانفراج أسارير الوجه) أم سلبية (الانفعال))، ويتحلى ببديهة قوية لاقتناص الضحايا الذين يمكن أن تنطلي عليهم الحيل دون عناء يذكر.